

سورة الكهف

إشارات و تأويلات

روزبهان البقلى

((ت 606 هـ))

إعداد: الفنان : قدرى جاد



تفسير عرائس البيان في حقائق القرآن/ البقلي (ت 606 هـ) مصنف و مدقق

{ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا }

حمد نفسه سبحانه في الأزل، وكان موصوفًا بحمده الأزلي قبل حمد الحامدين له، حمدًا يكافئ كتابه الذي أنزل على عبده. ولو وكّل حمده إلى عبده لإنزال كتابه عليه، لذهب به حمده عن وجود الكون، ولم يطق أن يحمل وارد حمده بحكمه واستحقاق حمده، فشكر نفسه لما منَّ على عبده ليسهّل على عبده طريق عبوديته؛ لأن حمد القديم لا يحتمل إلا القديم. شرفه على الأنام لما منَّ عليه من العرفان، وسمّاه عبده، وأيّ تكرمة أكرم من هذا.

ولا يليق الحدثان بعبودية الذي يفنى أول سطرات عظمته الكون، كأنها مسألة تعليم لعباده: أَيّْ:احمدوا الله الذي عرّف عبده الكلام الأزلي بعد أن وهبه استعداد سماع كلامه وقبول وحيه وقوة رؤيته، حتى يعبّر عنه بلسان غير معوج وغير مفهوم.

ولو أنزل عليهم باللسان الأزلي، فمن يفهم ذلك من العرش إلى الثرى إلا من اتصف بصفاته؟ فالحمد وجب على الجمهور حيث شاهدوا بصفاته وكلامه على عبده، وأنطقه بمراده من كتابه.

قال ابن عطا: أضاف الكل بالكلية إلى نفسه، وقال: "على عبده" أَيّْ:على عبده المخلص، وحقيقة العبد الذي لا ملك له.
وقال أيضًا: الكتاب منشور ظاهر فيه أسرار باطنه.

{ قَيِّماً لِّيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً }

العمل الصالح هو التبرّي من الوجود بوجود الحق، والأجر الحسن مشاهدة الحق بلا حجاب أبدًا. قال بعضهم: العمل الصالح ما أُريد به وجه الله لا غير، والأجر الحسن أن لا يُحجب عن لقاء سيده.

{ مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ
كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً }

من لم يجد مقام مشاهدته ولم يعرف ذاته وصفاته بنعت رؤيته وخطابه، ويشير إليه بكلمة المعرفة، فقد عظم ذلك عند الله لأنه افترى على الله كذبًا. يا ليت لو خلص من عاينه وأخبر عنه من هذه الورطة؛

لأن من عاينه وأخبر عنه فقد أخبر عن غيره، وخبره وقع موقع تلك الكلمة التي كبرت تخرج من أفواههم. ألا ترى إلى تمام الآية كيف شكا عن الكل فقال: { إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً }.

ولذلك قال الواسطى: من ذكر افترى.

وقال ابن عطا: أكبر الدعاوى من ادّعى في الله وأشار إلى الله أو تكلم عن الله أو دخل في ميادين الانبساط، فإن ذلك كله من صفات الكذابين.

قال الله: "كبرت كلمة تخرج من أفواههم".
والمتحقق به لا يظهر شيئًا من أحواله بحاله.

وقال الأستاذ: من تكلم بهذا اللسان قبل أوانه فقد دخل في غمار هؤلاء.

{ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفاً }

أخبر سبحانه عن محبة حبيبه، نظام طريق محبته وعبودية عباده له، وشدة حرصه واهتمامه على الخلق. ومن غلبة ذلك غاص في بحر الأولية وسابق العناية لطلب فسخ إبرام القدر المقدر، لا بنفسه،

وذلك من علمه بتنزيه جلاله؛ حتى لو أراد أن يبدل جميع أقداره لقدَر، ولو يغفر لجميع الكفار لقدَر، ولا نقص على برهانه وسلطانه.

فأعلمه الحق أن هذا رسم أسرار الربوبية، ولا تقدر أن تهتك تلك الأسرار لأنه غيور على سره وغيبه. قال بعضهم: لا تشغل سرك بمخالفتهم، فما عليك إلا البلاغ، والهدى منا من نشاء.

{ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً } * { وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً }

إن الله سبحانه جعل في الأرض آيات سفلية من كل ما أظهر فيها من الأنهار والأشجار والجبال والبحار والمعادن والنبات والرياحين، وألبسها قمص أنوار صفاته، وجعلها مرآة للعارفين لينظروا فيها ويروا أنوار جلاله وجماله. وأيُّ زينة لها أعظم من نور بهائه وضياء صنائعه؟ ويمتحن بذلك المحتجب بمحل الزينة، والمنفرد برؤية الصفات.
وذلك قوله: { لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً }

العمل هنا ترك صورة الزينة والمزين، والاشتغال بالمزين بأن آثار جماله مبين من كل ذرة؛ فمن نظر إلى ذلك رأى الأشياء بالحقيقة.
لذلك قال عليه السلام: "أرنا الأشياء كما هي ".

وزينة الأرض أيضًا أولياء الله، والخلق ممتحنون بهم حتى يعرفوا حقوقهم. فحسن العمل النظر إليهم بالخدمة.
قال ابن عطا: أحسن إعراضًا عنها وتركًا لها.

وقال سهل: أحسن توكلًا علينا فيها. وقال أيضًا: حسن العمل الاستقامة عليها بالسنة. وقال القاسم: زينة الأرض الأنبياء والأولياء والعلماء الربانيون والأوتاد. وقيل: أهل المعرفة بالله والمحبة له والمشتاقون إليه هم زينة الأرض ونجومها وأقمارها وشموسها.

وقال الجنيد: أهل الفهم عن الله هم الذين جعلوا ما على الأرض من زينتها عبرة لهم، لئلا يتشاغلوا بشيء من الزينة، ولا يعملون بشيء من الزينة، ويعملون لمن زين هذه الزينة.

{ لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً }

أيهم أعلى همة وأطرب نفسًا في الإعراض عما لا يبقى بالاشتغال بالباقي. وقال الواسطى: أيهم أفزع قلبًا وأصفى قصدًا. يقال: العباد بهم زينة الدنيا، وأهل المعرفة بهم زينة الجنة. ويقال: زينة الأرض يكون الأولياء وهم أمان في الأرض. ويقال: إذا تلألأت أنوار التوحيد في أسرار الموحدين أشرق جميع الآفاق بضيائهم.

وقال الأستاذ: في قوله "أحسن عملًا" أصدقهم نية وأخلصهم طوية.
ثم إن الله سبحانه لما آوى أولياءه إلى حضرته القديمة،
بقي ما على الأرض من زينة صعيدًا جرزًا يابسًا أو أرضًا قفرًا لا نبات فيها، ليتعطل الحدثان ويبقى الرحمن.

{ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً }

أَيْ: تغرب شموس أنوار الصفات في مغارب الأفعال، فلا يبقى في مرآة الفعل أثر من نور الصفة؛ لأن نور الصفة رجع إلى معدنه من الذات، وظهوره لأجل سلب قلوب الصديقين من الأولياء إلى تلك المعاهد.
فإذا بلغوا إلى مأواهم ذهب معهم أنوار الصفات.
قال الواسطى في هذه الآية: الكون في قبضة الحق، وهو هباء في جنب القدرة. قال الله: { وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً }.

{ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً }

ذكر سبحانه من بسط قدرته وعظيم آياته وعجائب شأنه: أَيَّ: أيش معجب من أصحاب الكهف والرقيم من لبثهم في الكهف ثلاثمائة سنين وزيادة؟ فإنهم في مراقد أنسنا وبساتين قدسنا، غائبون فينا عن غيرنا. فإن في سعة قدرتنا أننا لو ننشق وردة من بساتين غيبنا لمشام العالمين، لهاموا في البوادي والقفار أبدًا. وما أظهرنا فيك من الآيات الكبرى أعجب من حالهم ألف مرة، وليس في عالم القدرة القديمة عجز عن إيجاد كل موهوم ومعدوم.

قال الحسين: أصحاب الكهف في ظل المعرفة الأصلية لا يزايلهم بحال، لذلك خفي على الخلق آثارهم.

وقال ابن عطا: سلبهم عنهم وأخذهم منهم، وحال بينهم وبين الأغيار، وألجأهم إلى غار الأنس، وآواهم وأمنهم، ثم أفناهم عنهم وغيبهم. فمن أرادتهم ومعاينتهم فتاهوا في الحضرة والعين، لذلك قال:

{ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ ٱلْكَهْفِ }

وقال الجنيد: لا تتعجب منهم، فشأنك أعجب من شأنهم، حيث أسري بك في ليلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وبلغ بك سدرة المنتهى، وكنت في القربى كقاب قوسين أو أدنى، ثم رددت عند انقضاء الليلة إلى مضجعك .

وقال بعضهم: أصحاب الكهف كالنومي، لا علم لهم بوقت ولا زمان، ولا معرفة بمحل ولا مكان؛ أحياء موتى، صرعى مفيقون، غافلون منتبهون، لا إليهم سبيل ولا لهم إلى غيرهم طريق.

وردت عليهم خلع من خلع الهيبة، وأظلهم ستور التعظيم، وأحدقت بهم حجب العظمة، واستناروا بنور العرش الكريم.
لذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ: { لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً }.

وقال الأستاذ: مكثوا في الكهف مدة، فأضافهم إلى مستقرهم فقال: أصحاب الكهف. وللنفوس محالّ، وللقلوب مقارّ، وللهمم مجال، وحيث ما يعتكف القلب فهناك يطلب أبدًا صاحبه.

{ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً } * { فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً } * { ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُواْ أَمَداً }

وصف الله سبحانه أوّل زمرة السبعة المختارة من أصحاب الكهف، والثلاثة المختارة من أصحاب الرقيم، وهم فتيان المعرفة الذين خلقوا بسجية الفتوة. وفتوتهم إعراضهم عن غير الله وعن الكون جميعًا، وإقبالهم على الله بنعت إيوائهم إلى كهوف وصاله، وظلال جماله، وحصون أنسه، وقصور قدسه.

بذلوا مهجتهم لله بلا نصب لأنفسهم، وطلبوه منه، ودخلوا في فرار قربه ومساقط أنوار شهوده. فلما استقاموا في منازل الأنس ومشاهدة القدس، ورأوا محبوبهم بنعت الرعاية والكلاية، هيّجهم نور البسط وسر الافتقار إلى سؤال زيادة القربات والمداناة:

{ فَقَالُواْ رَبَّنَآ آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً } معرفة كاملة وتوحيدًا عزيزًا،
{ وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً } إصابةً ووصولًا إلى وصال قدمه
الذي بلا زوال ولا امتحان، فهناك مقيل السعادة الكبرى،
ومراقد المشاهدة الكبرى .

قال الأستاذ: آواهم إلى كهف بظاهرهم، وفي الباطن مهّد مقيلهم
في ظل إقباله وعنايته، ثم أخذهم عنهم وقام عنهم،
فأجرى عليهم الأحوال وهم غائبون.

مصطلمون عن شواهدهم، فلما عاينوا من الكشف الأكبر
والرضوان الأعظم استطابوا الوقت وخافوا الفوت، والتجأوا منه إليه،
فألطف عليهم الحق سبحانه فغيبهم عن الوجود،
وأخذهم بنفسه عن وجودهم، بقوله:

{ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً }.

ذكر واحدًا من الإحساس، وجميعها مستغرقة في أنوار وطاه هيبة
الجلال. عليم لما سترهم وضرب عليهم سرادق غيرته، بقي عليهم حسّ
الأذان، فضرب على آذانهم ستر الغيرة حتى لا يجسّوا أصوات الأغيار.

أدخلهم في قباب عصمته، وآنسهم بحسن مشاهدته، وغيبهم عنهم فيه،
وزال عنهم رسوم البشرية، فبقوا مع الحق بالحق،
ناظرين إلى الحق بلا فترة .

وفيه نكتة لطيفة: لما رأوا الحق بهتوا في أنوار قدمه، وفنوا في سطوات عظمته، وذهبوا عن مقام سماع الخطاب. ولو بقي عليهم سماع الخطاب لم يستحكموا في مقام الخطاب على حدّ الرضا،
مقام الاستلذاذ والأنس والبسط والبقاء.

فأفناهم عنها لاستيفاء حظ التوحيد والفناء عنهم. وأيضًا صارت أسماع الظاهر إلى سماع بواطنهم، فسمعوا بأسماع القلوب والأرواح والأسرار، وما سمعوا من الحق شغل أسماع خواطرهم
عن أسماع الأصوات المختلفة .

قيل: أخذنا عنهم أسماعهم حتى لا يسمعوا إلا منا، وأخذنا عنهم أبصارهم فلا ينظروا إلا إلينا، حتى لا يكون لهم إلى الغير التفات،
ولا للغير فيهم نصيب بحال.

وقال ابن عطا: أخرجنا منهم صفة البشرية، وأفنيناهُم بصفات القدسية، قدّسنا ظواهرهم وبواطنهم، وجعلناهم أسرى في القبضة،
ثم رددناهم إلى هياكلهم وصفاتهم بقوله: { ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ }.
وقال أيضًا: إن الفائدة في الضرب على الأذان، وليس للأذان في النوم شيء،
إنه ضرب على آذانهم حتى لا يسمعوا الأصوات فينتبهوا،
ويكونوا من الخلق كلهم في راحة.

قال الأستاذ: أخذناهم عن إحساسهم بأنفسهم، واختطفناهم عن شواهدهم بما استغرقناهم فيه، وحقائق ما سقيناهم به من شهود الأحدية، وأطلعناهم عليه من دوام نعت الصمدية.

فلما استوفوا حظ شهود الغيب ولطائف مقام السكر،
وأراد أن يجعل لهم من مقام الصحو حظًا، رفع عنهم برجاء الهيبة
وسجوف ليالي الحشمة، وأفاقهم عن خمار السكرة بقوله:

{ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُواْ أَمَداً }
أقامهم مقام الاستقامة ليعرفوا منازل القرب بنعت الصحو؛
لأن السكارى صُيّروا في قفار الديمومية بالحظ والوجد لا بالمعرفة،
وليعرفوا مسالك الحقيقة أهل الإرادة.

قال الأستاذ: أيّ: رددناهم إلى حال صحوهم وأوصاف تمييزهم،
وأقمنا شواهد التفرقة بعدما محوناهم عن شواهدهم
بما أقمناهم بوصف الجمع.

{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى }
* { وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ
لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلـٰهاً لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً }

ليس شيء أطيب عند الحبيب من ذكر أحبائه لأحبائه. ذكر الحبيب الأوّل ما أطيبه عند الحبيب، استطاب الحق ذكر قصة فتيان محبته ومعرفته لحبيبه الأكبر، ليعرف منازل المحبين والعارفين الذين هاموا بوجوههم في بيداء شوقه وعشقه، ليزيد رغبته في شوقه ومعرفته.
أيّ:أنا أحقق خبر أسرارهم لك لتعرفهم أين تاهوا في مفاوز القيومية،
وأين استغرقوا في بحار الديمومية.

يا حبيبي، اعلم أن تلك فتيان محبتي انفردوا بي عن غيري، وهم شبان حسان الوجوه، قلوبهم مسفرة بأنوار شمس جلالي، فيها أسرارهم مقدسة بسر أسرار قدسي، وأبدانهم غائبة في مجالس أنسي. آمنوا بربهم، عرفوني بي، واستأنسوا بي، واستوحشوا من غيري.

ما أطيب حالهم معي، وما أحسن شأنهم في محبتي. زدناهم نورًا عن جمالي، فاهتدوا به طرق معاني ذاتي وصفاتي، وذاك النور لهم على مزيد الوضوح إلى الأبد؛ لأن نوري لا نهاية له.

وقال ابن عطا: زدناهم نورًا، ومن يعرف قدر زيادة الله؟ لذلك كانت الشمس تزاور عن كهفهم خوفًا من نورهم على نورها أن يطمسه.
وقال أيضًا في قوله: { نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ }، لتنظر إليهم بعين المشاهدة. وقال سهل: سماهم الله فتية لأنهم آمنوا بالله بلا واسطة، وقاموا إلى الله بإسقاط العلائق.

وقال فضيل: الفتوة الصفح عن عثرات الإخوان.
وقال أبو عثمان: الفتوة اتباع الشرع والاهتداء بالسنن وسعة الصدر وحسن الخلق. قال الله: { إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ }.

وقال الجنيد في قوله: { وَزِدْنَاهُمْ هُدًى }: جعلناهم أئمة المهتدين.
وقال بعضهم: سهّلنا لهم طريق القربة والوصلة. ويقال: لا يسمع قصة الأحباب أعلى وأجل مما يسمع من الأحباب. قال عز من قائل:
{ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ }.

وحدثتني يا سعد عنها فزدتني

جنونًا فزدني من حديثك يا سعد

ويقال: فتية لأنهم قاموا بالله، وما استقروا حتى وصلوا إلى الله.
وقال الأستاذ: زدناهم هدى، لاطفهم بإحضارهم، ثم كاشفهم بما زاد من أنوارهم، فلقاهم أولًا بالنبيين، ثم رَقَّاهم عن ذلك إلى ما كان كاليقين،

ثم زاد في وصف إيقانهم وإيمانهم وعرفانهم، وثبات قلوبهم حين قاموا مقام المحبة بشرط وفاء العبودية، ونفاذ أبصارهم وأسرارهم في المشاهدة والبراهين العقلية، وبلوغها إلى رؤية رب العزة،

{ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ }

أضاف ارتباط قلوبهم إلى نفسه، حيث عرّفهم نفسه بنفسه بلا واسطة.
فلما أدخلهم في عالم الملكوت، وأراهم سبحانه عظمة الجبروت،
لكادت قلوبهم تفنى في أول بوادي أنوار العزة وبديهة كشف سناء الأولية،
فألقى عليها رواسي أنوار الهيبة، وربطها على مشاهد القربة
بمسامير المحبة، حتى استقاموا في المعرفة حين قاموا بالشوق
إلى مشاهدة الوصلة .

فلما عظم عليهم قهر لطمات بحر القدم، ألجأهم الحق
إلى سواحل الكرم، وأشهدهم مشاهد ما أخرج من العدم،

{ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ }

ولولا خوف الزوال لهم ما غابوا عن القدم إلى مراسم العدم،
ولكن قلوبهم في مواقف العدم مرتبة،وإن كانوا في مشاهدة الرسوم
لهم إشارة إلى براهين،

بقوله: { لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِ إِلـٰهاً }
أَيِّ: لن نرى من دونه شيئًا في البين، ولو نرى الوسائط في رؤية الوسائط.
{ لَّقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً } أَيِّ:ميلًا عن طريق إفراد القدم عن الحدوث .

قال ابن عطا: رسمنا أسرارهم بسمة الحق، فقاموا بالحق للحق،
فقالوا: ربنا، إظهار إرادة ودعوة، ثم قالوا: رب السماوات والأرض، رجوعًا
من صفاتهم بالكلية إلى صفاته وحقيقة علمه. لن ندعو من دونه إلهًا،
لن نعتمد سواه في شيء، لو قلنا غير ذلك كان شططًا،
أَيِّ:بعيدًا من طريق الحق .

وقال جعفر: قاموا إلى الحق بالحق قيام أدب، ونادوه نداء صدق،
وأظهروا له صحة الفقر، ولجأوا إليه أحسن اللجأ،
وقالوا: ربنا رب السماوات والأرض، افتخارًا به وتعظيمًا له. فكافأهم
الحق على قيامهم بالإجابة عن ندائهم بأحسن جواب وألطف خطاب،
وأظهر عليهم من الآيات ما يعجب منه الرسل،

حين قال: { لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً }
وقد استدل بعض المشايخ بهذه الآية في حركة الواجدين في وقت السماع
والذكر؛ لأن القلوب إذا كانت مربوطة بالملكوت ومحل القدس،

حركها أنواع الأذكار وما يرد عليها من فنون السماع.
والأصل قوله: { وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ }. نعم، هذا المعنى إذا كان القيام قيامًا بالصورة، وإذا كان القيام من جهة الحفظ والرعاية، والربطة من جهة النقل من محل التلوين إلى محل التمكين، فالاستدلال بها في السكون في الوجد أحسن، إذا كان الربط بمعنى التسكين، والقيام بمعنى الاستقامة. ويقال: ربطنا على قلوبهم بما أسكنا فيها من اليقين، فلم يسبح فيها هواجس التخمين، ولا وساوس الشياطين.

{ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ ٱللَّهَ فَأْوُوا إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّىءْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقاً }

أخبر سبحانه عن صدقهم وإخلاصهم وفرحهم بالإيمان بالله والنجاة عن الكفر والضلال، واجتماعهم في مقام الخلوة. أَيِّ:إذا أخرجتم من أماكن النفوس والهوى، وصرتم منفردين باليقين الصادق، فأووا إلى جوار كرمه وبساط قدمه. { يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم } ذخائر لطائف علومه الغيبية، ويبسط لكم بساط عطايا مشاهدته وأنوار قربه ومحبته.

{ وَيُهَيِّىءْ لَكُمْ مِّنْ أَمْرِكُمْ مِّرْفَقاً }

أَيِّ:احتياجكم إلى وصاله ورؤية جماله، مسند الأنس، ويسقيكم شراب الزلفة من بحر القدس .

قال الأستاذ: العزلة عن غير الله توجب الوصل بالله، بل لا تحصل الوصلة بالله إلا بعد العزلة عن غير الله. ثم أخبر عن زيادة تلطفه بهم، بأن دفع عنهم تواثير العناصر، ودفع عنهم حرارة الشمس وشعاعها لئلا تتغير أشباحهم عن أحكام الروحانية، كأنه تعالى أدخلهم في خجلة الأنس في عالم القدس، وجعل ذلك العالم في الكهف .

{ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذٰلِكَ مِنْ آيَاتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً }

الإشارة في الحقائق:

أنه أخفاهم في كهف الأسرار، وأجلسهم في متسع الأنوار، وأشهدهم مشاهدات الجمال، وآواهم سناء الجلال، ووقاهم من سطوات أنوار شمس العزة والعظمة والكبرياء، التي تطلع من مشرق القدم وتغرب في مغرب الأبد، لئلا يحترقوا في أنوار عين الألوهية، ويفنوا في سلطان إشراق سبحات الكبرياء.

كأنه تعالى رباهم في مشاهدته بنور جماله، وحفظهم عن قهر كنه قدمه، لئلا يتلاشوا في عزة جلاله، ويبقوا معه بنعت الصحو والبقاء.

ولولا ذلك الفضل العميم، لو لم يبقوا في استعلان أنوار وحدانيته بأقل من لمحة، لرعاهم بنفسه عن نفسه لإدراك العلم بنفسه. هم في فجوة الوصال، وشمس الكبرياء تزاور عن كهف قربهم.

ذات اليمين الأزل، وذات الشمال الأبد، وهم في فجوة وصال مشاهدة الجمال والجلال، محروسون محفوظون عن قهر سلطان صرف الذات الأزليّة، التي يتلاشى الأكوان في أول بوادي إشراقها.

أَيَّ: آية أعظم من هذه الآية: أنهم في وسط نيران الكبرياء ولا يحترقون بها، فبقوا بالحق مع الحق، مستأنسين بالحق للحق، بنعت فقد الإحساس في مقام الاستئناس، غائبين عنهم، شاهدين بالله على الله.

انظر كيف كان كمال غيرة الله بهم، حيث حجبهم عنهم، ورفع الإحساس عنهم، ودفع حوادث الكون عنهم، ليكون الكشف أصفى، والقرب أجلى، والسر أخفى، والمشاهدة أشهى، والروح أدنى، والوقت أحلى.

ولا يعرف هذه الإشارة إلا العارف بالله بنعت الذوق، ويرى الله بوصف الشوق المستقيم بالله لله. قال الله تعالى: { مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ }، ومن لم يكن من أهل سلوكه كان في الأزل محرومًا عن قربه وإن خنق نفسه في المجاهدة.

{ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً }

من لم يكن للوصال أهلاً

فكل إحسانه ذنوب.

سبحان الله، أين غابوا تلك السبعة العارفة في أماكن الغيب ومشاهدة الرب؟ هام طلابهم في بوادي المعارف والكواشف، ولم يظفروا برؤيتهم،

وانحسرت الأزمان والأكوان والحدثان عن تفقدهم، ولا تطلع عليهم من غيرة الحق عليهم. هم ملوك معارف القدم، غابوا في مهمه الكرم.

بأي نواحي الأرض أبغي وصالكم

وأنتم ملوك ما لمقصدكم نحو.

قال ابن عطا في قوله: { وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت }، ذلك لمعنى النور الذي كان عليهم، بقوله: "وزدناهم هدى"، نور على نور، وبرهان على برهان. والشمس نور، ولكن إذا غلب نور أقوى منها انكسفت الشمس،
فكانت تزيغ عن كهفهم لغلبة نورهم،
خوفًا أن ينكسف نورها من غلبة نورهم.

وقال جعفر: يمين المرء قلبه، وشماله نفسه، والرعاية تدور عليهما، ولولا ذلك لهلك.

وقال ابن عطا في قوله: { مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ }: ما حدب عن الله أحد إلا من أراد أن يصل إليه بحركاته وسعيه، وما وصل إليه أحد إلا من أراد أن يصل إليه بصفته تعالى.

وقال الواسطى في قوله: { وَمَن يُضْلِلْ }: من جاء بأوائل الإيمان بلا علة، وأواخره بلا علة، وهذا صفة الحق لا صفة الخلق. وظهر أن المهتدي هو البائن من جميع أوصافه، المتصف بصفات الحق .

ثم زاد في وصفهم لحبيبه عليه السلام بأنهم غائبون بأرواحهم في أنوار القدم، وبأسرارهم في بحار الكرم، وبعقولهم في أودية الهوية،

وبقلوبهم في قفار الديمومية، وبأنفسهم في أشراف سلطنة الربوبية، وبأشباحهم في أماكن الموانسة،

{ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ }

أي: من كمال حسنهم في الغيبة أنه نشر أنوار القربة على ظاهرهم، وأزال عنهم وحشة النوم، وأظهر عن صورتهم لطائف النعمة، كأن أرواحهم كأجسادهم، وأجسادهم كأرواحهم. لذلك
قال عليه السلام ماترجمته: "نحن معاشر الأنبياء أجسادنا روح "

كأنهم من كمال حسن وجدهم وغيبتهم فيه والتمكين لهم غير غائبين. وانظر كيف كانوا في لطف غيبتهم حتى لا يعرف السيد أنهم رقود، وهذا من شواهد التمكين ولطافة الحال. لما حضروا مشاهد القرب،

غابوا عن القرب بالقرب، وغابوا في القرب بالقرب، وغابوا عن قرب القرب في قرب القرب، وقضوا في أسفار الأزل،
ففي كل نفس لهم الترقي والنقل من مقام إلى مقام، لقوله سبحانه:

{ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱليَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ }

أغرقهم الحق سبحانه في بحار أوليته وآخريته، وقلبهم بنفسه ذات يمين الأزل وذات شمال الأبد، قلبهم من رؤية الأفعال إلى أنوار الأسماء، ومن أنوار الأسماء إلى أنوار النعوت والأوصاف، ومنها إلى رؤية أنوار الذات.

قلبهم في كل نفس من عالم صفة إلى عالم صفة، وهم معه في سيرهم بين الصفتين. فأدار بأرواحهم إلى صحارى الأزل، وأدار بقلوبهم

في وادي الأباد، وأدار بأنجم عقولهم في أفلاك حقائقه،
وأدار بأسرارهم في بساتين علوم غيبه المجهولة.

قال ابن عطا: نقلبهم في حالتي القبض والبسط، والجمع والتفرقة، جمعناهم عما تفرقوا فيه، فحصلوا معنا في عين الجمع.
وقال بعضهم: نقلبهم بين حالتي الفناء والبقاء، والكشف والاحتجاب، والتجلي والاستتار.

وقال ابن عطا في قوله: { وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ }: مقيمون في الحضرة كالنومي، لا علم لهم بوقت ولا زمان، ولا معرفة بمحل ولا مكان؛ أحياء موتى، صرعى يفيقون، نومى منتبهون، لا لهم إلى غيرهم طريق، ولا لغيرهم إليهم سبيل .

وقال أبو سعيد الخراز: هذا محل الفناء والبقاء، أن يكونوا فانين بالحق، باقين به، لا هم كالنيام ولا كاليقظى، أوصافهم فانية عنهم، وأوصاف الحق بادية عليهم، وهو حياة تحت كشف دولة مقابلة يقين.
وقال أيضًا: لهؤلاء أئمة الواحدين، لما قاموا فقالوا: ربنا رب السماوات، كشف لهم حتى تبينوا جلال القدرة وعظم الملكوت،
فغُيّبوا عن التمتع بشيء من الكون بحقيقة أحوالهم، فصاروا دهشين، لا أيقاظ ولا رقود.

وقال الأستاذ: هم مسلوبون عنهم، مختطفون منهم،
مستهلكون فيما كوشفوا به من وجود الحق.

وقال في قوله: { وَنُقَلِّبُهُمْ }: إخبار عن حسن إيوائه لهم.
ويقال: أهل التوحيد صفتهم ما قاله الحق في وصف أصحاب الكهف:
{ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ }، لشواهد الفرق في ظواهرهم،
لكنهم بعين الجمع بما كوشفوا به في سرائرهم، تجري عليه أحواله
وهم غير مكلفين، بل هم يبيتون وهم خمود عماهم به.

وفي قوله: { وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ }

وقع لي من طريان الأحوال رمز في وصف الصفات المتشابهة.
أضاف "نقلبهم" إلى نفسه، أَيّْ: أقلبهم بنفسي في حجر وصلتي.
وهذه فيهم تلك الخاصية التي خص بها آدم عليه السلام بقوله:
{ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ }

فباشرهم أنوار يدي البقاء والقدم، ونقلبهم من ذات يمين الربوبية
بمحض الصفة، بغير تشبيه ولاحلول، إلى ذات شمال العبودية،
وذلك حين ألقاهم في قفار الأزل والأباد، ونومهم
على رؤوس أودية الصفات بنعت الغيبة عن الذات.

ولولا ذلك التقلب الذي أرجعهم من معدن الربوبية إلى معدن العبودية،
لنسفتهم صرصر الكبرياء في هواء عزة البقاء. لما أطلع عليهم الحق
شموس جلاله، كادوا أن يذوبوا في رؤيتها، فقلبهم من ذات يمين الأحدية
إلى ذات شمال الحدوثية، لبقائهم بالحق مع الحق.

وإذا كانوا متنغصين في مرارة التفرقة ومباشرة الحدوثية، نقلبهم من الحدثان إلى بحار العرفان، فهم بين الثقلين في مقامين: الفناء والبقاء، والقبض والبسط، والجمع والتفرقة. وهذه من لطائف سر العارفين، وتقلب أسرار الموحدين في عالم الملكوت والجبروت.

ثم اخبر سبحانه من سعة قدرته وكمال رحمته وجلال منته بانه اختار من بين سباع البرية كلبا عارفا وجعله مستعدا لقبول المعرفة ممهدا لجريان انوار محبته ومقبلا عليه مع اولياته لديه بقوله:

{ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ }

وضع قلب الروحانى الملكوتى فى كلب وجعل قلبه خزانة من خزائن معارفه وصندوقا من صناديق جواهر سر اسراره وحركه بسلاسل جذباته وحبس عنايته الى مشاهد قربه وعرفه طرق الربوبية وسلوك العبودية فروحه كان روحانيا وسره ربانيا وشهوده رحمانيا

والبسه ما ألبس القوم لذلك فرّ الى الحق مع أوليائه من أماكن الحدثان ويا عاقل: لا تنظر إلى صورة الكلب وغيره،فإن متحمل الصفات حقائق فعله،والكلب والغير من أفعاله،والصفات والأفعال فى معادنها منزه عن التفاضل،بل اذا اضيف الى الكون يفضل البعض على البعض، من حيث العلم والحكمة،

إذا كان سبحانه اختار أحدًا من خلقه بمعرفته ومحبته بحسن عنايته الأزلية، لا ينظر إلى سببه ولا إلى نسبه ولا إلى صورته ولا إلى رتبته، بل يُجري عليه بإرادته القديمة أحكام حسن عنايته، فيُصيّره جواهر الآفاق،

ويجعله لطائف الترياق، ويرفعه إلى تمام الملكوت، ويوصله إلى ميادين الجبروت. قال الله تعالى :

{ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ }

فجعل الكلب معظم آياته لهم، حيث أنطقه بمعرفته، وكسا قلبه أسرار نوره، وأبرز له أنوار هيبته، فاضطجع مقام الحرمة للرعاية بحسن الأدب بالوصيد. وبين سبحانه رتبة الإنسانية وفضلها على الحيوانية،

بحيث أقامه بالوصيد وعلى سرادق الكبرياء ووصيد مجد الجلال، وأدخلهم في فجوة الوصال. سبحان المتفضل بالكمال.

قال أبو بكر الورّاق: مجالسة الصالحين ومجاورتهم يؤثر على الخلق وإن لم يكونوا أجناسًا. ألا ترى الله كيف ذكر أصحاب الكهف فذكر كلبهم معهم لمجاورته إيّاهم.

ويقال: لما لزم الكلب محلّه ولم يجاوز حدّه، فوضع يده على الوصيد، بقي مع الأولياء. كذا أدب الخدمة يوجب بقاء الوصلة.

ثم زاد سبحانه في وصفهم مما كساهم من أنوار جلاله وعظمته التي ترتعد من رؤيتها قلوب الصدّيقين، وتقشعر من صولتها جلود المقرّبين، وتفزع من حقائقها أرواح المرسلين، بقوله تعالى:

{ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا }

إن الله سبحانه نبّهنا هنا عن جلال قدر نبيه ﷺ، بأنه تعالى ربّى روحه وعقله وقلبه وسرّه ونفسه في بدو الأوّل بنور حسن مشاهدته، وأنوار جمال وجهه خاصة بلا مطالعة العظمة والكبرياء، لأنه كان

مصطفى لمحبته، مجتبى لحسن وصاله، ودنو دنوه، ولطائف قرب قربه. وألبسه حلل حسن صفاته، وطيّبه بطيب أنسه، ونشّقه ورد قدسه، وسقاه من بحر وداده، من مروق زلفته بكأس روحه.

فكان عيشه مع الحق من حيث الأنس والانبساط والبسط والجمال، وكان خطابه خطاب تكرمة ومكرمة. عاش في مشاهدة جماله ونيل وصاله، كأن عندليب رياض الأنس وبلبل بساتين القدس، رأى الحق بعين الجمال في مرآة الجلال، ورآه بعين الجلال في مرآة الجمال، محفوظًا عن طوارق قهريات القدم وسطوات عظمة الأزل.
حاله أصفى من كدورة عيش الخائفين وغبار أيام المجاهدين.

ما وقع على سرّه قهر الغيرة، وما جرى على روحه سيول الفرقة، كان مرادًا معشوقًا حبيبًا محبوبًا، موصولًا بالوصال، معروفًا بالجمال.
كان من لطافته ألطف من نور العرش والكرسي، وطيبه كان أطيب من طيب الفردوس. شمال جماله يهبّ على رياض وصال الأزل، وحياة جنانه منزّهة عن قهر أيدي الأجل.

لو رأى بالمثل نملة ملتبسة بنور هيبة فعل الحق لفزع منها من حسنه ولطافته. لذلك قال تعالى :

{ لَوِ ٱطَّلَعْتَ } يا حبيبي من حيث أنت على ما ألبستهم لباس قهر ربوبيتي وسطوات عظمتي،

{ لَوْلَّيْتَ مِنْهُمْ } من رؤية ما عليهم من هيبتي وعظمتي،

{ وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا } لأنهم مرآة عظمتي، أتجلّى منهم بنعت عظمتي للعالمين، لئلا يقربوا منهم ويطّلعوا عليهم، لأنهم في عين غيرتي، ولا أريد أن يطّلع عليهم أحد غيري.

وأنت يا حبيبي موضع سرّي وموضع سرّ سرّي ومكان لطفى،
لو رأيتهم بذلك اللباس السلطاني الجبّاري لتفرّ منهم وتُملأ من رؤيتهم رعبًا، كما فرّ موسى كليمي من رؤية عصاه حين قلبتها حيّة تسعى، وذلك من إلباسي إيّاها كسوة عظمتي وجلال هيبتي.
ففرّ موسى من عظمتنا ولم يعلم من أيّ شيء فرّ.

ولا نقص عليك، فإنك وإن كنت مربّى برؤية الحسن والجمال منّا، فجميع صفات العظمة ونعوت الكبرياء انكشفت لك في لباس الحسن والجمال، وأنت جامع الجمع.

قال جعفر: لو اطّلعت عليهم من حيث أنت لولّيت منهم فرارًا، ولو اطّلعت عليهم من حيث الحق لشاهدت فيهم معاني الوحدانية والربانية

وقال ابن عطا: لأنّه وردت عليهم أنوار الحق من فنون الخلع، وأظلّتهم سرادق التعظيم، وأحرقت جلابيب الهيبة. لذلك قال الله لنبيه ﷺ

{ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا }

وقال الحسين: { لَوْلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا } أنفةً مما هم فيه من إظهار الأحوال عليهم وقهر الأحوال لهم، مع ما شاهدته من أعظم المحلّ في القربات في المشاهدة، فلم يُؤثر عليك بجلالة محلك.

وقال جعفر: لو اطّلعت على ما بهم من آيات قدرتنا ورعايتنا لهم وتولية حفاظتهم، لولّيت منهم فرارًا، أي ما قدرت على مشاهدة ما بهم من هيبتنا، فيكون حقيقة الفرار منّا لا منهم، لأنّ ما بدا عليهم منّا.

ثم أخبر سبحانه عن ارتفاع أثقال العظمة عنهم، وإفاقتهم عن سكر المشاهدة، وحضورهم بعد الغيبة، بقوله تعالى:

{ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا بَيْنَهُمْ }

فيه إشارة أنّهم في بديهة وقائع الغيب، وهم أهل البدايات في المعرفة وهجوم غلبات الوجد، لذلك هاموا في الغيب وطاشوا في القرب. ولو كانوا في محلّ التمكين والصحو ما غابوا عن الإحساس ورسوم المعاملات، ويكون حالهم كحال نبينا ﷺ حين دنا وثبت في التدلّي، واستقام قال لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك. ولو أنّ ما ورد عليه من أحكام الربوبية في المشاهدة ورد عنه على جميع الأوّلين والآخرين، لطاشت عقولهم، وطارت أرواحهم، وفنيت قلوبهم، واستهلكت نفوسهم.

ولكن ما أطيب زمان السُّكر للمريدين والمحبين والشائقين والعاشقين؛ أخذهم سُكر الوصال عن القيل والقال، وعن الاشتغال والمحال، وغيبهم في أنوار الجمال والجلال، حتى لم يحسّوا شيئًا من الحدثان، من ذوق وصال الرحمن.

ما أطيب تلك الأوقات المسرمدة، والأحوال المقدّسة، بحيث ما لهم مخبر عن مرور الزمان وحوادث الملوان.

روحه كان روحانيًا، وسره ربانيًا، وشهوده رحمانيًا، وألبسه ما ألبس القوم، لذلك فرّ إلى الحق مع أوليائه من أماكن الحدثان.

يا عاقل، لا تنظر إلى صورة الكلب وغيره، فإن متحمل الصفات حقائق فعله، والكلب والغير من أفعاله، والصفات والأفعال في معادنها منزهة عن التفاضل. بل إذا أضيفت إلى الكون يفضل البعض على البعض من حيث العلم والحكمة.

وإذا كان سبحانه اختار أحدًا من خلقه بمعرفته ومحبته بحسن عنايته الأزلية، لا ينظر إلى سببه ولا إلى نسبه ولا إلى صورته ولا إلى رتبته، بل يجري عليه بإرادته القديمة أحكام حسن عنايته، فيصيره جواهر الآفاق، ويجعله لطائف الترياق، ويرفعه إلى تمام الملكوت، ويوصله إلى ميادين الجبروت. قال الله:

{ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ }

شهورٌ ينقضين وما شعرنا

بإنصافٍ لهنّ ولا شرار

ما أقلّ زمان الوصال لعشّاق الجمال، والدهر عندهم في المشاهدة ساعة، وأعمار العالمين في منازل أنسهم لمحة.

وأنشد:

صباحك سكر والمساء خمار

نعمت وأيام السرور قصار.

زمان القربة قليل، وزمان الفرقة طويل، وذلك من غيرة العشق؛ الهجران في كمين الغيرة مقيم، وملدوغ الفراق من سمّ أفاعي الغيرة سليم. لا يصبر الدهر حتى يفرّق بين العاشقين والمعشوقين.

وأنشد:

عجبت بسعي الدهر بيني وبينها

فلما انقضى ما بيننا سكر الدهر

كانوا لا يعرفون اليوم من الأمس، ولا يعلمون من حدة الحال القمر والشمس. { قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَم لَبِثْتُمْ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ }. استقاموا مقام الوصال، واستلذّوا لطائف الجمال، وتخبّطوا في المقال، وما كان ذلك إلا من خمار سكر الأحوال. ذكروا أيام الوصلة في مقام الفرقة، وتعاظموا لطائف المؤانسة في منازل الوحشة، واشتاقوا إلى معاهد المشاهدة وأيام المداناة.

وأنشدوا:

سلامٌ على تلك المعاهد إنّها

شريعة وردٍ أو مهبّ شمال

ليالي لم تُحصر حرون قطيعة

ولم يمش إلا في سهول وصال

فقد مرّت أرضي من سواكن أرضها

بجلّب برقٍ أو بطيف خيال

قال ابن عطا: مقام المحب مع الحبيب وإن طال فإنه قصير عنده، إذ لا يقضي من حبيبه وطرًا، ولو مكث معه دوام الدهر، فإن انتهاء شوقه إليه كالابتداء، فانتهاؤه فيه ابتداء. فلما رجعوا من مقام الجذب إلى مقام السلوك، ومن مقام الروحانية إلى مقام البشرية، واحتاجوا إلى ما يعيش به الإنسان، استعملوا حقائق الطريقة، بقوله سبحانه:

{ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَاماً }.

لما استطابوا الخلوة فلم يخرجوا، أمروا المبعوث في طلب الرزق، فتركوا السؤال واستعملوا الكسب، بقوله: { فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ }.
ثم أمروه باستعمال الورع، لأن الورع من موجبات الطريقة وحقوق الحقيقة، وهذا أدب الأئمة.

قال ذو النون: لا يطفئ نور المعرفة نور الورع.
وأمروه بالمراقبة حتى لا يطلع عليهم أحد. وفيه بيان أن الكسب أيضًا من التوكل، لأن القوم بحمد الله لم يخلوا من مقام التوكل.

وفيه بيان أن أهل الوجد والحال والمكاشفة والمقال هم أهل الغذاء المحمود الملطف من لطف الطعام، لأن أرواحهم من عالم القدس، ولا يليق بهم إلا ما يليق بأهل الأنس من أكل الطيبات وأشهى المأكولات ولبس الناعمات.

قال جعفر بن أحمد الرازي: أوصى يوسف بن الحسين بعض أصحابه فقال: إذا حملت إلى الفقراء وأهل المعرفة شيئًا، واشتريت لهم طعامًا،

فليكن لطيفًا، فإن الله تعالى وصف أصحاب الكهف حين بعثوا من يشتري لهم طعامًا قالوا: "وليَتلطّف". وإذا اشتريت للزهاد والعباد فاشترِ كل ما تجده، فإنهم بعد في تذليل أنفسهم ومنعها من الشهوات.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت أبا عثمان المغربي يقول: إرفاق المريدين بالعنف، وإرفاق العارفين باللطف.

وقال الأستاذ: تواصوا فيما بينهم بحسن الخلق وجميل الرفق، أَيّ: ليتلطفن مع من يشتري منه شيئًا. ويقال: من كان من أهل المعرفة لا يوافقه الخشن من الملبوس، ولا النازل في الطعم من المأكول.

ويقال: أهل المجاهدات وأصحاب الرياضات فطعامهم الخشن ولباسهم كمثله، والذي بلغ المعرفة لا يوافقه إلا كل لطيف، ولا يستأنس إلا بكل مليح .

{ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً } * { إِلاَّ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَداً }

قوله تعالى: { وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً }، إن الله سبحانه أعلم نبيه وأدّب حبيبه في منازل العبودية ومشاهد الربوبية، بمحو الوجود عند وجود القديم الأزلي، وأن يرى الكل قائمًا بالله في مقام التوحيد، مع الكل في غير الجمع، بائنًا عن الكل في إفراد القدم عن الحدوث. وهو محض التجريد والتفريد، وقطع حدود علوم الخليقة عما في المشيئة الأزلية. فأعلم معنيين: إثبات الكسب وسبق التقدير، وأبهم أسرار المشيئة على الكل في بيان الاستثناء بقوله:

{ إِلاَّ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ }.

قال بعضهم: لم يُطلق لرسوله ﷺ أن يُخبر عن الحق إلا بما أخبره الحق، ولم يأذن له في الإخبار عن نفسه إلا عن مشيئة ربّه، فقال تعالى:

{ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ } ... { وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ }

فإن قوله: { وَٱذْكُر رَّبَّكَ } عقيب قوله: { وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ } يدلّ على ذلك، أَيّ:إذا شاهدت نفسك فقد غبت عن مشاهدة ربّك، فاذكره، أَيّ: شاهده مشاهدةً تُغيبك في مشاهدةٍ عن مشاهدتك نفسك.

وأيضًا: واذكر ربّك إذا كنت متصفًا متحدًا بربّك حين يغلب عليك سرّ الأنانية، فإذا ذكرت ربّك في مقام الأنانية خرجت من حدّ الخداع والتلبيس الصادرين من مكر القدم. وإذا ذكر القدمُ بان عدمه، وإذا بان عدمه تلاشى الحدث في القدم، ولم يبقَ إلا القدم، ويتبيّن أمر العبودية عند الربوبية.

وأيضًا: واذكر ربّك إذا غبت في مشاهدات المذكور حتى تتخلّص من غمار الفناء في الوحدانية، وتبقى ببقاء الحق ورؤية الأبدية، فإنك إن لم تذكر ربّك ولم ترجع من رؤية مذكورك إلى ذكره تفنى فيه ولا تُدرك حقائق وجوده، فإن السكران الفاني لا يظفر بما يظفر الصاحي المتمكّن.

وأيضًا: فاذكر ربّك إذا نسيت حظّك من مشاهدته وغاب عن شهوده عليك، حتى تصل بالذكر إلى رؤية المذكور.

وأيضًا: واذكر ربّك إذا نسيت ذكرك له،
فإن رؤية الذكر في رؤية المذكور نسيان المذكور بالحقيقة.

وأيضًا: فاذكر ربّك إذا نسيت الكون والحدوثية،
فإن ذكره لا يكون ذكرًا حقيقيًا إلا بنعت فناء ما دونه،
فإذا فني الحدث في القدم صار الذكر صافيًا.

وأيضًا: واذكر ربّك إذا نسيت ما وجدت منه،
فإن الوقوف في المقامات حجاب ذكر الحقيقة.

وأيضًا: واذكر ربّك إذا نسيت نفسك، فإن في رؤيتك وجودك وبقاء وجودك لا يكون الذكر بحقيقة الانفراد ورسم أفراد القدم على حدوث.

ثم أمره سبحانه أن يُخاطب أهل السرّ من المعرفة
بترجية وصول أدنى الدنو وأعلى العلو بقوله...

{ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَداً }

كان عليه السّلام أقرب الخلق من الله بنفس المعرفة والاصطفائية الأزليّة، لكن كان مع محلّه وشرفه في حيّز حقائق المعرفة قطرةً في بحر الأزليّة، فأمره الحق أن يسأل منه مزيد ما فيه
من طرق حقائق عرفان الأزليّة، وأقرب ما يكون فيه من وصول الوصول،
فإنّ الحق غير متناهٍ من جميع الوجوه.

قال ابن عطا: إذا نسيت نفسك والخلق فاذكرني،
فإنّ الأذكار لا تمازج ذكري.

.وقال الجنيد: حقيقة الذكر فناء الذاكر فيه، والذكر في مشاهدة المذكور

وقال الشبلي: ما هذا خطاب أهل الحقيقة، وأنّى ينسى المحق الحق
.فيذكره، بل يذكر حياته وكونه.

وأنشد:

لا لأنّي أنساك أكثر ذكراك

ولكن بذاك يجري لساني

وقال الجنيد: حقيقة الذكر الفناء بالمذكور عن الذكر،
لذلك قال الله تعالى: { وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ } أَيّْ:إذا نسيت الذكر
يكون المذكور صفتك.

وقد وقع لي نكتة هنا،

قال تعالى: { وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ }، الذكر حقّ جميع الذات والصفات،
ولا نهاية لهما، وذكر جميعهما واجب الحقوق على الخلق.
والصفات القديمة والذات الأزلي غير مذكور بذكر الحدثان،
كأنّه تعالى أعلم نبيه ﷺ أنّ جميع ذكره ما بلغ إلى وصف ذرّة من صفته،
فكل وقت مع جميع ذكره في حدّ النسيان
حيث لا يبلغ ذكره حقائق القدم.

قال: واذكر بعد ذكرك ولا تفتر عن ذكرك، فإنّ ذكرك على السرمديّة
واجب أبدًا، لأنّ بعد كل ذكر نسيان عن الباقي، فإذاً لا ينقطع الذكر أبدًا.
يدلّ على ما ذكرنا قوله تعالى:

{ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَداً }

بمعرفتي معرفة المذكور بنعت مشاهدته ورؤية ذاته وصفاته
بوصف فنائي وفناء ذكري فيه.

قال الجنيد: إنّ فوق الذكر منزلة، هو أقرب رشد من ذكره له،
وهو تجديد للنعوت بذكره لك قبل أن يسبق إلى الله بذكره.

وأيضًا لي نكتة في الذكر،

أَيّْ: قوله تعالى: { وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ }، فإنك إذا ذكرته بلسان
الحدثيّة نسيته، وإن أردت أن تذكرني بالحقيقة التي لا نسيان فيها ولا
فترة، فاتّصف بصفتي ثم اذكرني بصفتي حتى يصل ذكرك إليّ بالحقيقة.

{ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَاةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ
وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا
وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً }

هذا تسلية لنبيه ﷺ، فإنّه كان عليه السلام بقلبه في الملكوت،
وبروحه في الجبروت، وبسرّه في مشاهدة القدم، وبعقله في أنوار غيبه،
مشتاقًا إلى الحق، ولا يصبر في الدنيا بأن يكون مع الخلق بالصورة،
وكان يريد أن يطير إلى منازل قاب قوسين كل وقت،
لما رأى بين القوسين بغير الكونين مشاهدة الجلال والجمال.

فقال سبحانه: احبس نفسك مع هؤلاء الفقراء العاشقين بجمالي،
المشتاقين إلى جلالي، الذين في جميع الأوقات يسألون عني لقاء وجهي
الكريم، ويريدون أن يطيروا بجناح المحبة إلى عالم وصلي،

حتى يكونوا متسلّين بصحبتك عن مقام الوصال،
فإنّ في رؤيتك لهم رؤية ذلك الجمال، فتكون معهم موافقًا،
وسرّك وعقلك وروحك وقلبك عندي .

فإنّها مواضع تجلّي كبريائي وأسرار عزّتي، ولا يطيق الكون أن يكون في جوار قلبك، فإنّ قلبك معادن أسرار العليّين، ومزار الكروبين، وهو عرش تجلّي القدم، ومعادن عيون الكرم، ولا يليق به مصاحبة أهل العدم.

.

{ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ }

فإنهم ينظرون بعينك إليّ إذا كانت عينك في طلب مشاهدتي
في مرآة أفعالي من الخلق والخليقة .

{ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا }

بأن يواسيك برؤية الأكوان والحدثان لزيادة العرفان؛ فإن الوسائط في الحقيقة تورث الغفلة عنا، وهو سبحانه شغل قلوب الخلق بخلقه عن خلقه، وحجبهم برؤية الخليقة عن مشاهدة الحقيقة.

فمن غافل سبب غفلته الجنة، ومن غافل سبب غفلته خوف النار، ومن غافل سبب غفلته استكبار العبودية، ومن غافل غفلته رؤية الأعواض، ومن غافل غفلته رؤية الكرامات، ومن غافل سبب غفلته المجاهدات، ومن غافل غفلته العيش الهنيء في الدنيا،

وأدق الغفلة السكون بما وجد من الحق والوقوف مع مقام الحظ؛ فالكل محجوبون عن مشاهدات الأزل صرفًا. أي لا تكن مثل هؤلاء الواقفين على مقاماتهم المحجوبين بحظوظهم من أحوالهم.

قال ذو النون: أمر الله تعالى الأغنياء بمخالطة الفقراء والصبر معهم والاستنان بسنتهم، قال الله: { وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم }.
وقال عمرو المكي: صحبة الصالحين والفقراء الصادقين عيش أهل الجنة، ينقلب من الرضا إلى اليقين، ومن اليقين إلى الرضا.

وقال ابن عطا: خاطب الله نبينا ﷺ وعاتبه ونبّهه،
وقال: واصبر على من صبر علينا بنفسه وقلبه وروحه،
وهم الذين لا يفارقون محل الاختصاص من الحضرة بكرة وعشيًا،
فحق لمن يفارق حضرتنا أن تصبر عليه فلا تفارقه .

وسئل أبو عثمان عن الغفلة فقال: إهمال ما أُمرت به، ونسيان تواتر نعم الله عندك. وقال بعضهم: الغفلة عقوبة القلب، وهو حجابه عن المنعم. وقال سهل: الغفلة إبطال الوقت بالبطالة.

وقال الأستاذ: قال { وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ } ولم يقل قلبك،
لأن قلبه كان مع الحق، فأمره بصحبة الفقراء جهرًا بجهر،
واستخلص قلبه لنفسه سرًّا لسر.

{ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِي ٱلْوجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقاً }

إن الله سبحانه علم من كتمان نبيه ﷺ سرّ أسرار الأزل وما له من عند الله من علومه الغريبة وأنبائه العجيبة من العلوم المجهولة ولطائف الحقيقة وأحكام صفاته المتشابهة، من شفقته على أمته، وعلم بضعف حملهم أثقال تلك الحقائق،

فأمره الحق أن لا يكتم تلك الأسرار التي هي أعلام فضائله وفضائل خواص أهل الولاية وأسرار الربوبية في قلوبهم، ويفشيها ولا يخاف من إيمان الخلق بها وإنكارهم عليها؛

فإن العاشق الصادق لا يبالي بهتك الأسرار عند الأغيار، ولا يخاف لومة لائم، ولا يكون في قيد إيمان الخلق وإنكارهم؛ فإن لذة عشقه في هتك الأسرار أصفى، وحلاوة عيشه في ذلك أشهى كأنه تعالى حثّ نبيه ﷺ على التحديث بنعمه بقوله :

{ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ }

وإشارة الظاهر: أَيِّ:بيّن طريق الرشد عن الغي لمن تابع الرشد، فلا يتبعه إلا بتوفيق الأزل، ومن ضلّ في الغي فلا يضل إلا بسابق قدر الحق . قال ابن عطا: أظهر الحق للخلق سبيل الحق وطرق الحقيقة، فمن سالك فيه بالتوفيق، ومعرض عنه بالخذلان، وهذا قوله:

{ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ }

فمن شاء الحق له الهداية هداه بطريق الإيمان، ومن شاء الله له الإضلال سلك به مسلك الكفر، وهو الضلال البعيد .

{ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً }

إن الله سبحانه يهدي الذين عملهم الصالح إلى ترك ما دونه، وهو بكرمه ورحمته يجازيهم بقربته ومشاهدته، ويدخلهم قباب أنسه ورياض قدسه، ويلبسهم أنوار جماله وجلاله، فيكونون مزينين بحلي كرامته ولباس رأفته، مستندين به إليه بنعت رؤية الرضوان الأكبر والحظ الأوفر. نعم الثواب وصلته، ونعم حسن المرتفق مرتفقهم مجالس أوصاله ورؤية الكمال والجلال والجمال.

قال ابن عطا: على أرائك الأنس في رياض القدس، في حجاب القرب وميادين الرحمة، مستشرفون على بساتين الوصلة، مشاهدون مليكهم في كل حال. وقال الأستاذ: يلبسون حلل الوصلة، ويتوجون بتاج القربة، ويحلون بحلي المباسطة، يتكئون على أرائك الروح، يشمون رياحين الأنس، ويقيمون في حجال الزلفة، يسقون شراب المحبة.

{ هُنَالِكَ ٱلْوَلاَيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ }

أخبر عن كمال حفظه أولياءه يوم القيامة عن التحير فيه، فإذا يحفظهم عن قهر سلطان ربوبيته ويدخلهم في منازل وصلته، فتلك الولاية الحق له التي خصّ بها في الأزل أهل وداده، وهي أرفع المنازل وأشرف المناهل وأحسن العواقب وأكرم المناقب.

والولاية الحق في الدنيا والآخرة هي ما صدرت من اختياره الأزلي وإرادته القديمة، وحقيقتها أن لا يخذل من اصطفاه بها.

قال الواسطى: من تولاه الله بالحقيقة فهو الولي، ومن تولاه الله فيه فهو الوالي. وقال ابن عطا: الحق أسبق من حقيقة المحق، وهو يدعوك إلى حقه، فإذا طلبته لنفسك أتى عليك. ألا ترى إلى قوله:

{ هُنَالِكَ ٱلْوَلاَيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً }،
ثواب للطالبين له لا لطالب الجنة، وخير أملًا للمريدين.

{ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَاقِيَاتُ ٱلصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً } * { وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً }

معناه المحبة الدائمة غير مشوبة بشوب الحدثان ولا بغبار الحرمان، وأيضًا المعرفة الكاملة التي صدرت من رؤية ذاته وصفاته في قلوب العارفين، وأيضًا الأنس بالله والإخلاص في توحيد الله والانفراد بالله عن غير الله. وهذه المنازل باقية للعارفين، وهي صالحة لا اعوجاج لها، وهي خير المنازل لأنها وصف بقاء العارف مع بقاء الحق.

قال جعفر الصادق: الباقيات الصالحات هو تفريد التوحيد، فإنه باق ببقاء الموحد. وقال ابن عطا: هي الأعمال الخالصة والنيات الصادقة، وكل ما أُريد به وجه الله.

وقال يحيى بن معاذ: هي نصيحة الخلق. ويقال: ما يلوح في السرائر من تجليه للعبد بالنعوت ويفرح نشره في سماع الملكوت.

ثم أخبر سبحانه عن عظيم قدره وجلاله وعظم كبريائه وسلطانه، تخويفًا لعباده وتنبيهًا لهم عن عظيم آياته، بقوله:

{ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلأَرْضَ بَارِزَةً }

إن الله سبحانه يتجلى بعظمته يوم القيامة للجبال، فتُقلع الجبال من أصلها، وترقص في الهواء، وتصطدم بعضها ببعض حتى تتهالك وتصير غبارًا من خشية الله وهيبته، وتبقى الأرض بارزة حتى لا يكون حجاب بين أحد من الواقفين عليها.

قال ابن عطا: دلّ بهذا على إظهار جبروته وتمام قدرته وعظم عزته، ليتأهب العبد لذلك الموقف ويصلح سريرته وعلانيته لخطاب ذلك المشهد وجوابه.

وقال الأستاذ: موت الأبدال الذين هم الأوتاد، ومنهم القطب، فجبال الأرض التي هي أوتادها تُقلع في القيامة، وتسبق جبال الأرض اليوم بموت السادة إذ هم الأوتاد للعالم بالحقيقة.

{ وَعُرِضُواْ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفَّاً لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُمْ مَّوْعِداً }

يعرف كل صنف من أهل المقامات والولايات، وكل من له دعوى من بساط عزته بما هم فيه في أيام البلاء في دار العناء، فيشهد كل شاهد مشهده؛ فمن شاهد يشهد مشاهد المنة، ومن شاهد يشهد مشاهد

الوصلة، ومن شاهد يشهد مشاهد الصفات، ومن شاهد يشهد مشاهد الذات. فمن كان مشربه المحبة فهو في بحر الجمال،

ومن كان مشربه الهيبة فهو في بحر الجلال، ومن كان مشربه المعرفة فهو في بحر الصفات، ومن كان مشربه التوحيد فهو في بحر الذات، ومن كان مشربه الجولان في الأفعال فموضعه مقام الجوار في الجنان، ومن كان محجوبًا في الدنيا عن هذه الأحوال فموضعه النيران.

قال الأستاذ: يقيم كل واحد يوم العرض في شاهد مخصوص، ويلبس كلًّا بما هو أهله؛ فمن لباس تقوى، ومن قميص هدى، ومن صدار وجد، ومن صدرة محبة، ومن لبسة شوق، ومن حلة وصلة.

ويقال: يُجردهم عن كل صفة إلا ما عليه فطرهم يوم القيامة، فينادي المنادي على أحدهم: هذا الذي أطاع واتقى، وهذا الذي عصى وطغى، وهذا الذي أتى ووجد، وهذا الذي أبى وجحد، وهذا الذي عرف فأقر، وهذا الذي خالف فأصر، وهذا الذي أنعمنا عليه فشكر، وهذا الذي أحسنا إليه فكفر،

وهذا الذي سقيناه شرابنا ورزقناه محابنا وشوقناه إلى لقائنا، ولقيناه خصائص رعائنا، وهذا الذي وسمناه بحجتنا وحرمناه وجوه قربتنا، وألبسناه نطاق فراقنا ومنعناه توفيق وفاقنا... وهذا وهذا.

ومعنى قوله سبحانه:

{ لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ }

شاهدوا الحق على وصف فطرة الأولية، حيث لا أعمال ولا أحوال ولا نطق ولا أقوال، محتاجين إلى عين منه ينظرون بها إليه، وإلى سمع منه يسمعون به منه، وإلى قلب يعقلون به عنه، وإلى روح يعيشون به.

وهم هناك على حدّ الفناء عن أوصاف الخليقة،

مغلوبين بأسرار قهر الأزل، دهشين بين يدي جبروته، كأنهم يخرجون من العدم عاجزين في أنوار القدم، يُسألون عنهم: على أي شيء كنتم، وعلى أي موقف وقفتم من معرفة الجلال ومحبة الجمال؟

فيهيجهم فضله العميم وكرمه القديم إلى نطق بالجواب،
فيقولون: نحن ما كنا في مهاد الولاية شاربين ألبان الزلفة من ثدي القربة،
ساكنين عن غبار الوحشة، والآن جئناك على لباس العبودية،
ملامين في دار المحبة

هُنَالِكَ ٱلْوَلاَيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً .

{ وَوُضِعَ ٱلْكِتَابُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يٰوَيْلَتَنَا
مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا
وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً }

كتاب الأعمال يوضع للزهاد والعباد، ويوضع كتاب الطاعة والمعصية للعموم، ويوضع كتاب المحبة والشوق والعشق لأهل الخصوص.
فكم من زفرة مكتوبة، وكم من آهٍ منقوشة، وكم من غيرة معروفة،
وكم من حرقة مشهودة، وكم من لوعة اشتياق محفوظة.
وتلك الكتب مشحونة بحقائق أنوار أسرارهم، وفي الفضائل منشورة

وأودع الفؤاد كتاب شوق سينشر طيه يوم القرار، يعرض كتبهم
على الأولين والآخرين حتى يعترفوا بجهلهم عن معرفتهم في الدنيا بأستار.
فكم من عارف ليس له كتاب،

وهو من أهل السر في سر السر، ما عرف ملكاه ما جرى عليه،
كيف يكتبان الذي لا يعرفان ولا يريانه؛ فأعماله قلبية، وقلبه غيبي،
وغيبه أزلي، لا يطلع عليه إلا الحق سبحانه. وهذا كقوله ﷺ:
"إن لله عبادًا لا يطلع عليهم ملك مقرب ولا نبي مرسل"،
وهو من أهل خصوص الخصوص.

ظاهر الآية تخويف لمن له خاطر مذموم أو نفس معدودة
مشوبة بالتفات سره إلى غير الحق.

قال أبو حفص: أشد آية في القرآن على قلبي قوله:

{ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً }.

انظروا إلى المخالفات كان فيها الهلاك، وانظروا إلى الموافقات
وجدوها مشوبة بالرياء والسمعة والشهوات. فخوف أهل اليقظة
من الموافقات أكبر من خوفهم من المخالفات؛ لأن المخالفات في مقابلة
العفو والشفاعة، وسوء الأدب في الموافقة أصعب وأخطر.
ولو لم يكن فيه إلا المطالبة بصدق ذلك، قال الله:
{ لِّيَسْأَلَ ٱلصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ }.

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لأَدَمَ فَسَجَدُوۤاْ إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً }

إن الله سبحانه عاتب من التفت إلى شيء سواه من العرش إلى الثرى، وأعلمنامقام تنزيه قدمه عن الأضداد والأنداد، التي هي فانية تحت جبروته وخاضعة في ميادين ملكوته. القدم عن الحدوث، ومن النور، وأي شيء النور والظلمة، ومن إبليس وذريته،

وأيّش الأصنام والأوثان في ساحة كبريائه الأزلي، الذي يفني بسطوة من سطواته كل ما بدأ من العدم إلى الوجود .

قال يحيى بن معاذ: لا يكون وليًا لله ولا يبلغ مقام الولاية من نظر إلى شيء دون الله أو اعتمد سواه، ولم يميز بين من يواليه ومن يعاديه.

وقال الحسين: خاطبك الحق تعالى أحسن خطاب، ودعاك إلى نفسه بألطف دعاء، بقوله: { أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي }.

{ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُداً }

إن الله سبحانه أخبر عن أولية ذاته وتقدم صفاته حيث لا حيث ولا أين ولا بين، ولا رسم للحدث ولا وسم. كان بحر وجود جلاله مسرمدًا دائمًا، منزهًا عن نقائص الحدوثية. لا عقل ولا فهم ولا علم، كان في قدم عزته لا وجود لها ولا عدم، فلم يزل قائمًا بذاته.

فإذا أراد كون الخلق مشاهد صفته بنعت التجلي، أخرج الكون من العدم، ولم يحتج إلى إعانة حادث في إيجاده .

قال أبو سعيد الخراز: لقد عجزت الخليقة عن أن تدرك بعض صفات ذاته في ذاته، أو تدري كيف كنهها في أنفسها. قال الله:

{ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ }
فلم يملك الله الخليقة أن تحوي علم أنفسها في أنفسها، فكيف تدرك شيئًا من صفات شاهدها.

{ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً }

قُرى الحقائق لبعضهم نفوس، ولبعضهم قلوب، ولبعضهم عقول، ولبعضهم أرواح، ولبعضهم أسرار، وللعموم صدور، ولعموم العموم أشباح. فأهل الأشباح لما لم يستعملوا الحواس بما خلق الله لها من طاعته وخدمته مسخها، كقوله: { كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ }.

وأهل الصدور لما لم يراعوا أنوار الإسلام بتقديسها عن شوب النفاق، خربها الله بجند الوسواس.

وأهل النفوس لما لم يزكوها بصفاء المجاهدة، تركها في شهواتها وحجبها عن صفاء الذكر. وأهل القلوب لما لم يراقبوا أنوار الغيوب، حجبها عن رؤية ملك الآخرة. وأهل العقول لما لم يستعملوها بالجولان في الأفكار ولطائف الأذكار، حجبها عن غرائب الأنوار.

وأهل الأرواح لما لم يحيلوها في ميادين الملكوت
لطلب مشاهدة الجبروت، حجبها الحق بشواغل الرسوم.
وأهل الأسرار لما لم يعرفوا حقائقها وماهيتها، تركها خالية عن كشوف أحكام الربوبية. وأهل الظاهر لما لم يعرفوا المنعم باشتغالهم بالنعمة، أهلكهم الله بأن شغلهم بالنعمة عن طلب المنعم.

قال أبو بكر بن طاهر: لما لم يشكروا نعم الله عندهم،
ولما لم يقابلوا البلاء بالصبر والرضا.
وقال الواسطى: وكلناهم إلى سوء تدبيرهم حين سخطوا حسن اختبارنا.

{ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَباً }

لما أخطآ الطريق لم يُسرا بالقلب، فأثر عليهما النصب، كان موسى في هذا السَّفرِ مُتَحَمِّلاً، فقد كان سَفَر تأديبٍ واحتمالِ مشقةٍ، لأنه ذهب لاستكثار العلم. وحالُ طلب العلم حالُ تأديبٍ ووقتُ تْحمُّلٍ للمشقة، ولهذا لَحِقَهُ الجوعُ، فقال: { لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَـٰذَا نَصَباً }.

وحين صام في مدة انتظار سماع الكلام من الله صبر ثلاثين يوماً، ولم يلحقه الجوعُ ولا المشقةُ، لأن ذهابَه في هذا السفر كان إلى الله، فكان محمولاً .

{ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَآ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً }

فيه إشارة خفية أن لله سبحانه خواص من عباده، وهم الذين اصطفاهم لمعرفة ما استأثر لنفسه من علوم الربوبية وأسرار الوحدانية وحقائق الحكمة ولطائف ملكوته وجبروته.

وهم أهل الغيب وغيب الغيب، والسر وسر السر، الذين غيّبهم الله في غيبه وسترهم عن خلقه شفقة عليهم فيما يظهرون من سر الله.
هؤلاء هم العباد بالحقيقة الذين بلغوا حقيقة العبودية بحيث جعل الله عبوديتهم محاذية لربوبيته، وإلا فالكل عباده من حيث الخليقة،
لكن هم العباد بالحقيقة من حيث المعرفة.

{ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا }

أيّ:ولاية وقربًا ومشاهدة.

{ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً }

أيّ:معرفة كاملة وعلماً من علومه المجهولة الغيبية،
وهو العلم اللدني الخاص الذي استأثره الله لنفسه ولخواص خواصه.

قال ذو النون: العلم اللدني هو الذي يُحكم على الخلق بمواقع التوفيق والخذلان.

وقال ابن عطا: علم بلا واسطة للكشوف ولا بتلقين الحروف، لكنه الملقى إليه بمشاهدة الأرواح.

وقال الحسين: العلم اللدني إلهام أخلد الحق الأسرار فلم يملكها انصراف.
وقال القاسم: علم الاستنباط بكلفة ووسائط،
وعلم اللدني بلا كلفة ولا وسائط.

وقال الجنيد: العلم اللدني ما كان محكماً على الأسرار من غير ظرفية ولا خلاف واقع، لكنه مكاشفات الأنوار عن مكنون المغيبات، وذلك يقع للعبد إذا ذمّ جوارحه عن جميع المخالفات وأفنى حركاته عن كل الإرادات، وكان شبحًا بين يدي الحق بلا تمنٍّ ولا مراد.

وقال سهل: الإلهام ينوب عن الوحي، كما قال:
{ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ }، { وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ }.

وقال الأستاذ: إذا سمى الله إنسانًا بأنه عبده جعله من جملة الخواص، فإذا قال "عبدي" جعله من خواص الخواص.

{ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً } *
{قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً }{ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً }
{ قَالَ سَتَجِدُنِيۤ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أمْراً } *
{ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْني عَن شَيءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً }

أحسن الأدب موسى عليه السلام حيث استأذن في المتابعة.
عرف موسى أن علم الحق لا نهاية له، فاشتاق إلى ما فوق علمه، فاستعلم مكنونه من مواضع تجليه وخاصية خطابه، وذلك الرشد الأعلى.

وكان موسى أعلم من الخضر بما عنده من الحق، ولكن ليس عنده ما كان عند الخضر في ذلك الوقت، فأراد سبحانه أن يعرّف موسى ذلك العلم السري النور الغيبي، فامتحنه بصحبة الخضر لتقويم السنة في متابعة الأساتذة وليكون أسوة للمريدين.

قال فارس: موسى كان أعلم من الخضر فيما أخذ عن الله، والخضر كان أعلم من موسى فيما وقع إلى موسى. وقال أيضًا: موسى كان باقياً بالحق، والخضر كان فانيًا بالحق، ولا فرق بينهما لأنهما تكلما من معدن واحد.

ثم إن الخضر دفع صحبة موسى ونسبه إلى قلة الصبر معه،
وهو يعلم أن موسى أكرم الخلق على الله في زمانه،
فقال: { إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً }. فقرن الصبر بالعلم،
وبيّن أن قلة الصبر من الجهل. وكان موسى صابرًا عالمًا، لكن من حمية
في دينه وشريعته لم يقبل ما لا يوافق الشرع، وذلك ليس قلة صبر
ولا قلة علم، إنما هو أمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

قال جعفر: لن تصبر مع من هو دونك، فكيف تصبر مع من هو فوقك.
وقال بعضهم: قال الخضر لموسى: إنك لن تستطيع معي صبرًا،
ثم لم يصبر هو مع موسى بقوله: "هذا فراق بيني وبينك"،
ليعلم أنه ليس لولي أن يتفرس في نبي.
وقال بعضهم: آيسه من نفسه لئلا يشغله صحبته عن صحبة الحق.

{قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِراً }

تأدب موسى واستثنى، لأنه كان عالمًا بأن الصبر لا يكون إلا بالله. قال فارس: موسى استثنى على نفسه بقوله: "ستجدني إن شاء الله صابرًا"،
ولم يستثن الخضر على موسى بقوله: "إنك لن تستطيع معي صبرًا"،
لأن علم موسى في ذلك الوقت علم تكليف واستدلال،
وعلم الخضر علم لدني من غيب إلى غيب

{ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْني عَن شَيءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً }

دفع سؤاله، فإن الصادق يعلم الواقعة إذا كان متحققًا، ويتبين له ما يريد بصدقه وإخلاصه، ولا يحتاج إلى السؤال. وحق المتابعة السكون عند تصرّف الأستاذ.

قال الحصري: علم الخضر قصور علمه عن محل سؤال موسى، وأنه ألجأ إليه للتأديب لا للتعليم، فقال له: إن اتبعتني فلا تسألني عن شيء، لأن علمك أعلى وأتم، وإنما جئت إليّ للتأديب لا للتعليم في خاص حال من الأحوال.

{ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً }

سلكا طريق السؤال، وهو يتعلق بتذلل النفس في الطريقة. فلما أبوا أن يضيفوهما نزلا من مقام السؤال إلى الكسب، والكسب من أوصاف السالكين، والسؤال من أوصاف المجذوبين الذين لا يطيقون الاشتغال بالمكاسب.

وفيه بيان أن الكسب والسؤال لم يمنعا العارف من مقام الرضا والتوكل، لأنهما مع جلالة قدرهما سألا واكتسبا، وكانا في محل التوكل والرضا على أحسن الأحوال.

قال الواسطى في قوله: { فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا }، الخضر شاهد أنوار الملك، وموسى شاهد الوسائط. وكان الخضر أخبر موسى

أن السؤال من الناس هو سؤال من الله، فلا تغضب عن المنع، فإن المانع والمعطي واحد، فلا تشهد الأسباب، واشهد المسبّب.

ولما أقام الخضر الجدار وترك أجر العمل،

قال موسى: { لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً }.

لم يكن موسى يطمع في أجرة العمل، لكن وجد أهل القرية لئامًا بخلاء، فأراد أن يأخذ أجرة العمل ويتصدق بها، أو يغفر الله لهم ببركة الأنبياء. وكان موسى في مقام الرفاهية والأنس، والخضر في منازل الطريقة.

قال ابن عطا: رؤية العمل وطلب الثواب به يبطل العمل، ألا ترى الكليم لما قال للخضر: لو شئت لاتخذت عليه أجرًا، كيف فارقه.

وقال الجنيد: إذا وردت ظلم الأطماع على القلوب حجبت النفوس عن حظوظها من بواطن الحكم.

فلما انتهى علم الخضر إلى كماله، وعرف موسى شأنه وحدّ علمه، قال: { قَالَ هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ }.

عرف الخضر سر موسى وأنسه بجمال الحق، وأنه ممتحن في صحبته، فأراد أن يريحه من صورة العلم والعمل.

{أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً } * { وَأَمَّا ٱلْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً } * { فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا

خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً } * { وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً }

{ وَأَمَّا ٱلْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً }

عجبت من هذا الأمر، وأن الله سبحانه كان في الأزل عالمًا بذلك، قادرًا على أن يخلقه مؤمنًا، ولم يطبع على قلبه الكفر حتى لا يكون أبواه بسببه كافرين. لكن حكمته الأزلية جارية بغير إدراك أفهام الفهماء.

ظاهر الآية كأنها تنبئ أن اكتساب البشر مانع القدر، كقتل الخضر الغلام يمنع صيرورة كفر أبويه. والأمر أعلى مما يتوهم المتوهمون، لأن ذلك بيان وصف عين الجمع في العالم: أن الخضر فعل الله، والغلام فعل الله، والقتل فعل الله، والأمر أمر الله، والقدر قدر الله.

فمن حيث القدر يثبت، ومن حيث الفعل يمحو ما قدّر.

{ يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ }

كان نظر الخضر إلى القدر الظاهر، ونظر موسى إلى قدر القدر.

موسى احتج بأن القدر سبق على بقاء إيمان أبويه وإيمان المقتول معًا، وإن لم يكن القتل في البين. والخضر احتج بأن قتل الغلام كان أيضًا مقدرًا في أزل الآزال، وهو بذاته فعل الله المباشر في أمر الله. فلما علا علمه بالقدر على علم موسى قال: { هَـٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ } .

{ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا } ... { فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا } ... { فَأَرَادَ رَبُّكَ }

هذه الإرادات على صورتها مختلفة، وفي الحقيقة واحدة،
لأن الإرادة بالحقيقة إرادة الله؛ إذ كل الإرادات صدرت بصنوفها عن إرادة الله. فقوله: "فأردت" خبر عن عين الجمع والاتحاد، وقوله: "فأردنا" خبر عن الاتصاف والانبساط، وقوله: "فأراد ربك" خبر عن إفراد القدم عن الحدوث، وتلاشي الحدث وفناء الموحد في الموحد.

.

قال ابن عطا: لما قال الخضر "فأردت" أوحي إليه في السر: من أنت حتى تكون لك إرادة؟ فقال في الثانية "فأردنا"، فأوحي إليه: من أنت وموسى حتى تكون لكما إرادة؟ فرجع وقال: "فأراد ربك".

وقال الحسين: المقام الأول استيلاء الحق،

والمقام الثاني مكالمة مع العبد،

والمقام الثالث رجوع إلى باطن الغلبة في الظاهر، فصار به باطن الباطن ظاهر الظاهر، وغيب الغيب عيان العيان.

{ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي ٱلأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً }

أخبر سبحانه عن ذي القرنين أنه أعطاه خلقة قدرته، وألبسه تمكين فعله، حتى سهل له قلب الأشياء، وكان يفعل ما يشاء بالله ويحكم بحكمه ما يريد. ومعنى { وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً } أَيّ:من كل ما في الملكوت السفلي برهانًا وحكمة وعلماً ومعرفة بالله، وسببًا إلى قرب الله.

قال ابن عطا: جعلنا الدنيا طوع يده، فإذا أراد طويت الأرض، وإذا أحب انقلبت له الأعيان، وإذا شاء مشى على الماء، وإذا هوى طار في الهواء.
وقال جعفر: من شهد السبب انقطع عن المسبّب، ومن شهد صنع المسبّب امتلأ قلبه من زينة الأسباب، فإذا امتلأ قلبه منها حال بينه وبين الملاحظة وحجبه عن المشاهدة.

{وَأَمَّامَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَايُسْراً}

أَيّْ: من عرف الله وشاهده وتبرأ مما دونه.
{ فَلَهُ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ }

أَيّْ:له وصل الحق أبداً جزاء لهذه المعاملات الحسنة، وله زيادة المعرفة بجلال الله وعظمته.

قال ابن عطا: جزاء الحسنى أن يرزقه الله الرضا بالقضاء، والصبر على البلاء، والشكر على النعمة، وينزع من قلبه حب الشهوات والدنيا ووساوس النفس والشيطان.

{ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً }

كانت أعينهم في غطاء غيرته وشقاء مشقته عن النظر إلى مرآة الكون بالحقيقة، حتى يروا حقيقة ماهية الأشياء التي لطائفها تذكر القلوب عجائب أنوار الذات والصفات. وأيضًا أعينهم في غطاء الشقاء، فلا يرون جمال القرآن الذي هو مذكر جميع الذات والصفات.

قال ابن عطا: أعين نفوسهم في غطاء عن نظر الاعتبار، وأعين قلوبهم في غطاء عن مشاهدة العيان في الملكوت. فإذا فتح عين قلبه بالمشاهدة فتح عين رأسه نظر الاعتبار.

{ وَكَانُواْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً }

لأن آذانهم مسدودة عن سماع الحق، ولم يُفتح لهم سمع السماع، فكيف يسمعون بظاهر سمعهم وهو تبع لسمع قلوبهم:

{ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً } * { ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَاةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً } * { أُوْلَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ وَزْناً } * { ذَلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوۤاْ آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً } * { إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً }

وصف الله أهل الرياء والطلب للجاه والسلطنة، الذين ضلّ سعيهم في الدنيا والآخرة، إذ يظنون أنهم يحسنون صنعًا، وهم في عين الشرك والضلالة.

قال ﷺ: "أدنى الرياء شرك".

وقال أبو بكر الوراق: هو الذي يبطل معروفه بالمنة وطلب الشكر، ويبطل طاعته بالرياء والسمعة.

ثم وصف سبحانه أهل الإخلاص بقوله:

{ إِنَّ ٱلَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلاً }،
أَيّْ: الذين عاينوا الحق وصبروا فيه، واستقاموا في إدارة قلوبهم،
كانت لهم في الأزل بساتين الفردوس، لا يحتجبون عنها أبدًا.
قال ابن عطا: متنعمين فيها نعيم الأبد، آمنوا كل مخوف، ووصلوا
إلى كل محبوب، ولا يشتهون شيئًا إلا وجدوه، فلا يطلبون عنها تحويلاً .

{ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي
وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً }

أخبر أن أوهام الخليقة تقاصرت عن إدراك علومه وحكمته، وأن أبصارها
كليلة عن الإحاطة بذاته، وأن قلوبها عاجزة عن فهم معاني صفاته.
فلو كان الكون كله بحورًا لا ساحل لها مدادًا، والأولون والآخرون أقلامًا،
لفنيت البحور والأقلام، وبقيت كلمات الله غير محصورة،
لأن الحوادث منتهية، وصفات الأزلية منزهة عن نقائص الحدوث.

قال الله: { وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ
سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللَّهِ }.

وقال الحسين: مقياس العدم في الوجود في معنى وجوده،
فلو كانت أبد الآباد أقلامًا ومدادًا، ما نفدت معاني كلمة من كلماته.
وإنما يذكر للناس ما يفيدهم من معاني العبودية،
أما الكمال من فوائد الكلام فللأنبياء والأصفياء والأولياء .

{ قُلْ إِنَّمَآ أَنَاْ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً }

إن الله سبحانه زيّن حبيبه ﷺ بأنوار الربوبية، وجعله متخلّقًا بخلقه، مرآةً يتجلّى فيها الحق للعالمين. فمن كان له عين
مكحولة بسنا الذات ينظر بها إليه، يرى في النبي جمال الحق،
حتى يكاد لا يبرح لحظة عن حضرته. فأخبر الله بلسانه أنه بشر مخلوق، وإن كان متخلّقًا بخلقه، ليقطع الوهم ويثبت الفرق بين القدم والحدوث.

{ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ }، أَيّْ: من نظر إلى غيره، وإن كان متلبسًا بنوره، فقد أشرك في التوحيد.

لذلك قال ﷺ: "لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ".

{ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً }

أَيّْ:من كان من أهل المشاهدة والرجاء، فليكن عمله خالصًا لله، منزّهًا عن نظر النفس ورؤية الأعواض، فلا يلتفت قلبه إلى غير الله. فالعمل الصالح هو ما يصلح للعرض على الله بلا استحياء.

قال يحيى بن معاذ: العمل الصالح ما يصلح أن تلقى الله به
.ولا تستحيي منه. وقال سهل: العمل الصالح ما كان مقيدًا بالسنة .

{ وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً }

أَيّْ:لا يرى في عمله نفسه ولا غيره، بل يكون فانيًا في بقاء الحق.

قال جعفر: لا يرى في وقت وقوفه بين يدي ربه غيره، ولا يكون في همه وهمته غيره. فالأحدية صفة الموحد القديم، والعبادة اسم الأحد،

فإذا كان الاسم معزولًا عن العدد، فأين وحدة الحدثان في وحدة الحق؟

قال الله تعالى:

{ قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ }.

والله سبحانه وتعالى أعلم.

وبالله التوفيق، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم،

{ وصلَّى اللهُ على سيدنا محمدٍ ﷺ وآلهِ وصحبهِ وسلَّم تسليماً }

تم بفضل الله وحمده

2026/5/ 1

الهرم على بن أبى طالب

راجى كرم الله ورحمته

الفنان:قدرى جاد